

2020

التمدين والهجرة والتحول الاجتماعي في تاريخ الدار البيضاء في ظل إكراهات الماضي وتحديات الحاضر 1981-1912

الكبير عطوف

جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير
e.atouf@uiz.ac.ma

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Migration Studies Commons](#), and the [Social History Commons](#)

Recommended Citation

عطوف، الكبير (2020) "التمدين والهجرة والتحول الاجتماعي في تاريخ الدار البيضاء في ظل إكراهات الماضي 1981-1912", *Dirassat*: Vol. 22 : No. 24 , Article 6.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol22/iss24/6>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

التمدين والهجرة والتحول الاجتماعي في تاريخ الدار البيضاء في ظل إكراهات الماضي وتحديات الحاضر (1981-1912)

عطوف الكبير

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر - أكادير

مقدمة

اخترنا هذه الفترة : 1981-1912؛ إذ إن معاهدة الحماية وُقعت في 30 مارس 1912، وأحداث الدار البيضاء المعروفة وقعت سنة 1981.

عرف المجتمع المغربي عدة تحولات لاحت في الأفق منذ مأسسة الحماية، تجسدت، في إفلاس الفلاحين والتجار الصغار والحرفيين التقليديين، بحكم المنافسة التي فرضها المعمرون-الأوروبيون، الذين خلقوا اقتصادا استعماريًا عصريًا، كان من نتائجه، نشأة حركة عالية كبيرة تفتقر إلى الوعي العمالي-النقابي، وبالتالي "ميلاد بروليتاريا مغربية" في المدن الكبرى، خاصة في مدينة الدار البيضاء. وتتمخض عن هذه الهيمنة الاستعمارية عدة عواقب وخيمة، تمثلت في إفلاس البادية المغربية، التي كانت تستقطب أكثر من 80% من ساكنة المغرب، والتي عرفت تحولات كبرى، يمكن رصدها كالآتي:

فرض علاقات إنتاج رأسمالية-استعمارية-هيجينة تركز على الملكية الخاصة، التي نتجت عنها تفكيك العلاقات الاجتماعية والنظام القبلي التقليدي.

- حرمان الفلاحين الصغار من وسائل إنتاجهم الوحيدة المتمثلة في الأرض، وبالتالي إيقال كاهلهم بالضرائب المجحفة، التي حتمت هجرتهم نحو المدن الساحلية، خاصة إلى الدار البيضاء.

- تركز معظم الأراضي الخصبة في أيدي المعمرين-الأوروبيين وعمالهم، واكتفاء الفلاحين الصغار بالملكيات الصغيرة الموجودة في مناطق أقل خصوبة؛ مما دفع بالآلاف منهم إلى الهجرة نحو

المدن الكبيرة أو إلى "الجزائر أو فرنسا"¹، أو الاشتغال في "المؤسسات العسكرية الفرنسية-الإسبانية، كجنود"².

- تسببت هذه التحولات في تفاقم الهجرة، التي كانت لها انعكاسات سلبية على وضعية المدينة المغربية،

- أصبح المغاربة المفلسون يبحثون عن "السُّيولة النقدية" (l'argent liquide)، التي تمثل رمزا للعيش في مجتمع استهلاكي، تأجج مع الاحتكاك بالأوروبيين، الذين حرص الماريشال ليوطي (Lyautey)، أول مقيم عام في المغرب (1912-1925) وتيودور ستينغ (Theodore Steeg : 1925-1929)، بعده على تشجيع هجرتهم إلى المغرب، وذلك بكل الوسائل المغربية، كتوزيع القروض والأراضي والسكن.

وتسارعت هجرة القرويين نحو الدار البيضاء، التي تركزت فيها لوحدها، سنة 1955، "أكثر من 70 % من الاستثمارات واليد العاملة القادمة من سوس ودرعة وتافيلالت ودكالة والرحامنة وعبد الواد والريف"³ زد على هذا هجرة الآلاف من يهود المغرب والمستوطنين-الأوروبيين، الذين سيطروا على أهم الاستثمارات.

وتقدّم لنا مدينة الدار البيضاء مجالا نموذجيا حيا لدراسة أهم التناقضات والتحديات، التي يختزلها التمدن في المجتمعات العربية-الإسلامية الراهنة، والتي تطبعها تحولات سريعة ومثيرة، خاصة أن ثقل الاستعمار وتناججه، على مستوى التطور الحضري وتنظيم المجال، ما يزالان يُلقيان بظلالهما على مشاريع التهيئة المحلية والمشاريع التنموية التي تواجهها إكراهات عدة.

إن الدار البيضاء مدينة مؤهلة للنجاح بحكم اعتمادها على عدة أوراق رابحة تكمن في تدفق السياح ومشاريع الاستثمار، مثل "مسجد الحسن الثاني"، الذي يعتبر آية في الجمال والهندسة المعمارية، والميناء الهائل، الذي يعتبر من بين أكبر الموانئ الأفريقية والعالمية، ومطار محمد الخامس، الذي

1- Elkbir Atouf, *Aux origines anticipatrices des migrations marocaines vers l'Algérie coloniale et la France colonisatrice 1830-1942*, (Rabat, Éd. Université Ibn Zohr/Négoce Com, 2014), 241 p.

2 - Elkbir Atouf, « Mémoire des soldats marocains des deux grandes guerres », pp. 95-119, in Nouria Ouali (sous-direction), *Trajectoires et dynamiques migratoires de l'immigration marocaine de Belgique*, (Louvain-La-Neuve, Éd. Academia Bruylant, 2004).

3 - André Adam, *Histoire de Casablanca, des origines à 1914*, (Paris, Éd. Ophrys, 1968), p. 77.

"يمثل 51% من مجموع النقل الجوي بالمملكة"¹، بالإضافة إلى منطقة التبادل الحر "الأفشورينغ-off-shoring)" وصناعة أجهزة الطائرات والتكنولوجيات الجديدة والمتجددة: وترمز هذه البنى التحتية و"المشاريع المستحدثة"² إلى التبادل التجاري والفكري والحضاري؛ وهكذا إذن، أضحت الدار البيضاء أكبر مدن المغرب، ومن بين أكبر المدن الأفريقية والعربية، التي تتوافر على قطاع اقتصادي متقدم وشبكات مالية وسياحية ومواصلاتية متطورة.

ورغم هذا النجاح الذي يُسهم في تنمية المدينة وازدهارها، فهو مع ذلك، يطرح عدة إشكالات عويصة: كانهدام الأمن، والتلوث الناتج عن ازدحام السيارات وتقليل المجال الأخضر، واكتظاظ السكان في أكوخ الصفيح، التي تفتقر إلى النظافة والوقاية والمرفق الاجتماعية الضرورية. وهناك، أيضا، إشكالات تتعلق بتدبير النفايات ورمي الأبال ووسائل النقل العمومي البعيدة عن مركز المدينة، مقارنة مع ضواحيها، التي توسعت بطرق عشوائية. بفعل التهيئة المجالية، دون إشراك السكان المحليين.

نطرح في الأخير الأسئلة التالية: ماهي أهم المحطات-المراحل التاريخية، التي قطعها الدار البيضاء، على مستويات التمدين والتعمير والهجرة، وكذا على مستوى العقبات التي واجهتها، في ظل التحولات المجتمعية المعاصرة؟ وما هي أهم المخططات-التصاميم الحضرية، والإشكالات البنوية، التي رافقت توسعها وتنظيم مجالها؟ وهل يمكن اعتبار الهجرة، باختلاف أنواعها وأنماطها، مسألة سلبية، أم يجب تصورها كقيمة مضافة منتجة وإيجابية لتنمية المدينة؟ وأخيرا، ما هي الحلول-البديلة الممكنة، التي بإمكانها أن تضمن العيش الكريم، في مدينة مُواطنة، تستطيع الحفاظ على تراثها المادي والرمزي وذاكرتها الخصبة، في إطار تنمية مستدامة-متوازنة تحترم حقوق الإنسان والبيئة، وتستطيع مواجهة تحديات العولمة؟

تلك أهم التساؤلات والإشكالات التي نأمل دراستها من خلال إيجاد أجوبة وافية ومستفيضة، مُعزّزة بمراجع ومصادر متنوعة، هما الأساس: الاقتراب من الحقيقة قصد ملازمة الواقع المعاش، الذي تحكم في تاريخ التطور الحضري وفرض عدة تحولات رسمت المعالم الكبرى لمدينة الدار البيضاء، التي كان لها دور طلائعي في تاريخ المغرب المعاصر.

1- Ministre de l'habitat, La ville de Casablanca, les attribues d'une grande métropole, (Rabat, 2012), pp. 1-2.

2- Jalal Bernoussi et autres (coordination), Le grand Casablanca, la décennie de la renaissance (Casablanca-Turin Imprimerie K-Business Strategy-Éditions Économiques du Maroc, 2013), p. 14.

فجوات منهجية ومعرفية :

نلخصها فيما يلي:

-نذرة الأبحاث الجامعية ذات الصبغة السوسيو-تاريخية والأنثروبولوجية في الموضوع، فما هو موجود، حتى الآن، هو عبارة عن نظرات أحادية الجانب تهتم بدراسة قضية من القضايا على حساب أخرى؛ في حين أننا نقترح محاولة تركيبية ترصد تاريخ الدار البيضاء المديني؛ علما بأنه موضوع كتيه الجغرافيون وعلماء الاجتماع وغاب عنه المؤرخون،

-أغلب الدراسات التي تناولت الدار البيضاء لا تأخذ بعين الاعتبار دور الهجرة في تاريخ تكوين المدينة وتشكيلاتها الاجتماعية، على المدى الطويل،

-معظم الدراسات المنجزة تهتم فقط باندماج المهاجرين، وتركز على المخاطر الاجتماعية والسياسية المحتملة؛ بيد أن جوانب الإقصاء الاجتماعي وتحديات التمدن وظاهرة التمييز الحضري لم تُدرس بعد؛ بحيث لا يمكن فهمها إلا في إطار التحولات الاجتماعية والمجالية التي عرفتها المدينة،

- غياب مزدوج للبعد والعمق التاريخين، منهجيا ومعرفيا، لدراسة التحولات الاجتماعية البيضاء وعلاقتها بالاستعمار والهجرة والتنمية الحضرية.

وتتلخص الأهداف التي نتوخاها :

أولاً، إظهار دور التمدن والهجرة والتحولات الاجتماعية في تاريخ الدار البيضاء، الذي لم يكتب بعد،

ثانيا، إبراز مخلفات الماضي الاستعماري وإكراهاته في تمدين مجال-تقليدي أصبح شبه صناعي، مثله الدار البيضاء، التي هندسها ورسمها ليوطي، ثالثاً، فتح آفاق بالنسبة إلى الطلبة والباحثين المهتمين قصد الإسهام في كتابة تاريخ تمدين الدار البيضاء، قصد صيانة ذاكرتها.

خطة العمل والمنهجية المتبعة

سنعتمد مقارنة مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية المتطورة، التي ستساعدنا على سبر أغوار المجتمع البيضاوي، وبالتالي تخطي سلبيات المنهج الأوح؛ ومن ثم نفهم ضرورة الاستفادة من مقاربات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ الاجتماعي. ولعل هذا ما سيمكننا من استغلال مصادر ومراجع متنوعة، دون إغفال الرواية الشفوية، التي ستمكننا من رصد ونقل مشاكل المواطنين لأصحاب القرار.

وقد وقع اختيارنا على تصميم كرونولوجي-زمني، نظرا لطول الحقبة المدروسة، وارتأينا أن نقسم موضوعنا، هذا، إلى محطتين رئيسيتين (II،III)، بالإضافة إلى المقدمة (I) والخلاصات والبدائل (IV).

II . محطة الحماية: التمدن المفروض أو نسف العمران العربي الإسلامي (1912-1956)

لا بد لنا من تحديد بعض المصطلحات المستعملة في هذا البحث، والتي نعتبرها ذات أهمية منهجية قصوى، من قبيل: "التمدن"/"التحضر" أو "التنمية الحضرية"؛ أما المفاهيم التي تحيل على الهجرة فقد سبق أن حاولنا تحديدها في "أعمالنا السابقة-المنشورة"¹، ونريد فقط أن نشير، هنا، إلى كون الهجرة تنقسم، من المنظور الإسلامي، بقداستها وقدمها. وهكذا، أضحت الهجرة تحتل مكانة هامة في تاريخ الإسلام والمسلمين؛ إذ إن التاريخ الإسلامي بدأ بهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة سنة 622 م. ولم يكن متاحا له بناء الدولة الإسلامية، التي نعرفها اليوم؛ إلا بهجرته من مكة إلى المدينة (يثرب). والهجرة، في هذا السياق، أصبحت في الخيال الجماعي والذاكرة الجماعية للمسلمين قاطبة بمثابة رمز حقيقي للأمل والوعد والخلاص.

1. محاولة تحديد بعض المفاهيم المستعملة

يُحِيل مفهوم التمدن على التحضر والعيش في المدينة ويختلف مضمونه باختلاف تخصصات الباحثين والمناهج المتبعة، ولا يوجد تعريف واحد للمدينة، التي يبقى صعبا للغاية، نظرا إلى تعدد المعايير واختلافها من دولة إلى أخرى؛ وهكذا، نجد بأن فلندا والسويد، مثلا، تعتبران كل تجمع سكاني "تجمعا حضريا إذا وصل عدد سكانه إلى 200 نسمة"²؛ أما "الدانمارك فهي تعمد 250 نسمة كحد أدنى؛ عكس فرنسا، التي تحدد سقف 2000 نسمة"³، من أجل إدماج تجمع سكاني ما ضمن خانة المدن/المدينة. وبالإضافة إلى معيار الكثافة السكانية، هناك معايير أخرى كوجود المرافق الاجتماعية، والإدارية في التجمعات الحضرية. وكل التعاريف التي تمكنا من دراستها تشترك في نقطة مركزية تكمن في كون المدينة يطبعها السكن المتجمع؛ عكس القرية، التي تتميز بعزلتها وتشتيت سكانها.

1- عطوف الكبير، الهجرات العالية والمغربية: قضايا ونماذج، مقارنة سوسيو-تاريخية: 1045-2011، الطبعة الثانية، ملقحة (أكادير، طباعة ونشر سوس، 2013)، ص.8-10.

2- Ville-définition [archives], sur le site insee.fr, consulté le 10/09/2015.

3- Ville-définition, op. cit.

وحق الآن نبقي مَدِينين لمدرسة شيكاغو (l'École de Chicago) التي أحدثت ثورة علمية كبرى على مستوى فهم الظاهرة الحضرية، وعلى مستوى المناهج وأدوات البحث الميداني وتقنياته، التي نستعملها ونستغلها في وقتنا الراهن. ويعتبر روبر إزرا بارك (1864-1944) (Robert Izra Park) الأب الروحي ومؤسس هذه المدرسة الجامعية، وهو المعروف بـ"مقارنته الأيكولوجية للحضر-التمدين"¹ المرتبط بالهجرة والتفكك العائلي، والاعتزاب، والتشرد، والإقصاء، والتهميش، والفقر، والعنصرية "الإثنية" والاجتماعية، وما إلى ذلك: كل هذه الظواهر صاحبت التوسع الحضري لمدينة شيكاغو، وكان بارك أول من رصدها بدقة متناهية؛ بحيث اعتبر المدينة بمثابة مختبر اجتماعي لتحليل كل الظواهر الحضرية وفهمها وفق منظور متعدد الأبعاد ينطلق من العلاقة التفاعلية بين الإنسان وكيفية تدبير محيطه/المجال.

ومن زاوية أخرى، يذكرنا ابن خلدون، قبل غيره، بأن "الإنسان مدني بالطبع، لا بد له من الاجتماع، الذي هو المدينة"². ويزيد موضحاً، بأن "البداية أصل العمران والأمصار[...]. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة على أحوال البداوة وأنها أصل لها، فتفهمه" بمعنى أن نفهم بأن تشكيل المدينة وتتميتها، في آخر التحليل، يرجع أساساً إلى توسيع عمرانها بفعل هجرة السكان القرويين. وبمعنى آخر، لا يمكن لأية مدينة، مهما كان حجمها ووزنها الاقتصادي، أن تتطور إلا بفضل الهجرة والمهاجرين، وذلك ما انتبه إليه ابن خلدون، الذي يربط اكتمال التطور الحضري بالنمو الديموغرافي والتعمير المستمر، شريطة رسم سياسة تخطيطية منظمة لتدبير وتهيئة المدينة: "ومتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل [...]. وأن العمران البشري لا بد له من سياسة ينظم بها أمره"³.

ويجربنا رأي ابن خلدون حتماً إلى ضرورة التفكير في مفهوم التنمية الحضرية، الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الماضي في العديد من الدول الأوروبية، كفرنسا مثلاً، التي تداولته منذ بداية سنوات 1970، بموازاة مع اعتماد الدولة لنظام اللامركزية (la décentralisation). وقد تطور مفهوم التنمية الحضرية بفعل التحولات التي فرضت على المدن، والتي تستوجب وجود سياسة

1 - Yves Grafmeyer et Isaak Joseph, *L'école de Chicago, naissance de l'écologie urbaine* (Paris, Aubier, 1990).

2 - عبد الرحمن بن خلدون [تحقيق حامد أحمد الطاهر]، مقدمة بن خلدون، الطبعة الأولى، (القاهرة، دار الفجر للتراث، 2004)، 65.

3- عبد الرحمن بن خلدون [تحقيق حامد أحمد الطاهر]، مقدمة بن خلدون 371 و450.

مدينة-حضرية متكاملة تضمن وجود مشاريع اقتصادية وسياحية وثقافية، وكذا مرافق اجتماعية.

ويرتبط مفهوم التنمية الحضرية بالرؤية المستقبلية، التي بإمكانها تطوير العمران، والمواصلات، ووسائل النقل والتنقل، ومواكبة التحديات المطروحة وتنظيمها، والتي تحتاج إلى بلورة تنمية متوازنة ومستدامة. وبناء عليه، فالتنمية الحضرية تحيل على مجموعة من العمليات الطامحة إلى تأهيل المدينة، وبالتالي إحداث تحولات في جسمها الحيوي؛ ولكن بدون أن تلحق به ضرر أو تشوّه؛ مما يعني توافر كل الخدمات الأساس والبنى التحتية، التي تحتاجها وتساعد على التخفيف من حدة اختلالاتها.

وتبقى التنمية الحضرية بمثابة: "تطوير المجتمعات الحضرية، التي تزداد كثافتها السكانية [...] من خلال إنشاء مشاريع ومخططات [...]"، وتوزيع التكنولوجيا وسيادة المهن التجارية والصناعية والخدمات، قصد تحقيق الرفاهية والرفق اجتماعيا واقتصاديا بالمدن، والحفاظ على هويتها وتاريخها وتطويرها على المستويات الهندسية والمعمارية والجمالية"¹.

ولعل السؤال المطروح، في هذا الإطار: ما هو موقع الدار البيضاء، في ضوء محاولة تحديد مفهوم "التمدين" و"التنمية الحضرية"، وإلى أي حد نجحت هذه المدينة في تنظيم مجالها وتهيئة عمرانها، حتى يستفيد سكانها من تنمية مستدامة قادرة على مواجهة تحديات الماضي وإكراهات الحاضر والمستقبل؟

أرخ ميج (Miège) لسيرورة التمدين في المغرب، التي بدأت بوادرها، منذ سنة 1830، المتزامنة مع احتلال الجزائر و"بداية اهتمام الأوربيين بالمغرب، وبالدار البيضاء على الخصوص"²، وألح ميج على أهمية الزوج القروي والهجرة الداخلية، في اتجاه المدن الساحلية، بعد مجاعتي 1850 و 1867، وهما المجاعتان اللتان ضربتا وسط وجنوب المغرب. وتزايدت ساكنة المدن الرئيسة بالساحل، بشكل مستمر وملحوظ طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما بين ذلك المؤلف نفسه، من خلال التحليل والأرقام- والجداول الناطقة، التي أوردها في "كتاب-الأطروحة"³.

1- عبد العزيز رشدي، إشكالية التنمية الحضرية بالمغرب، 2015/7/5، على الرابط:

[http://hammurabicenter.com/site/%D8%A5 \(12/05/2018\)](http://hammurabicenter.com/site/%D8%A5 (12/05/2018))

2- Jean-Louis Miège et Eugène Hugues, *Les Européens à Casablanca au XIXe siècle*, (Paris, Librairie Larose, 1954), 128 p.

3- Jean Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe*, (4 Vol.) Vol. 3, (Paris, PUF, 1962), pp.17-20.

ولعل البداية الفعلية لأول "سياسة حضرية" في تاريخ المغرب كانت مع مؤسسة الحماية، التي تميزت بإحداث تغييرات جوهرية في تدبير المجال الحضري، وذلك ما يتعارض مع التطور التاريخي الطبيعي والمخاض الذي عرفته المدن العربية-الإسلامية العتيقة، التي ارتكزت، عموماً، في تكوينها وتدبيرها على أدبيات الفقه الإسلامي وتشريعاته: وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر تنظيم العمران وترميم المدن القديمة-التراثية وبناء المساجد، الخ.

وعرفت المدن العربية-الإسلامية، بعد اصطدامها بالمؤسسات الاستعمارية، عدة تحولات كبرى ستقف على أهمها، من خلال نموذج الدار البيضاء؛ وهكذا إذن، ستعرف أغلب المدن المغربية تغيرات عميقة ستطبع وتهيكّل طبيعة بنيتها الحضرية؛ بحيث أعطيت الأولوية لتشييد أو إعادة بناء مدن بإمكانها توفير أو توافر الشروط الضرورية لاستغلال وتصدير خيرات البلاد واستقبال أفواج المهاجرين المستقرين، في معظمهم، في المدن الساحلية الجديدة. وبذلك شكّل نسيج حضري تراجع فيه أهمية المدن العتيقة، لصالح نمط التدبير العمراني الحديث - العصري، والذي يستمد أصوله من الفكر الغربي-الفرنسي.

كان لميناء الدار البيضاء أثره البالغ في نشأة وتغذية المدينة؛ بل إن تطورها وتوسعها كان مستحيلاً في غياب الميناء، الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالازدهار العمراني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، الذي عرفته العاصمة الاقتصادية للبلاد، منذ زمن الحماية.

2. دور ميناء الدار البيضاء في تطوير وازدهار المدينة

ظل ميناء الدار البيضاء شاهداً عياناً، وفاعلاً حيوياً على كل المراحل التاريخية والتطورات الرئيسة، التي عرفتها المدينة، والتي ستفرض، تدريجياً، انتقال مركز القرار السياسي والاقتصادي نحو الساحل، مؤسسة بذلك لتراكم بشري واقتصادي وسياسي-اجتماعي، لم يسبق له مثيل "قبل الحماية"¹، على حساب المدن الداخلية والتاريخية، كفاس ومراكش والرباط. "وانطلاقاً من هذه الفترة، ستشهد البلاد بداية تطور نظام حضري جديد ستشكل فيه الدار البيضاء القطب الرئيسي، وستظل هذه المدينة، منذ ذلك الحين، في قلب تحولات المجال المغربي وفي تفاعل تام مع مينائها إلى أن أضحت اليوم الحاضرة الأولى للبلاد"².

1- من أجل استيعاب تاريخ الدار البيضاء، قبل الحماية، نحيل على مقالنا المختصر- المنشور باللغات العربية والفرنسية والانجليزية، في الكتاب نفسه : in Jalal Bernoussi, op. cit. : pp.41-49, « Regard historique » Elkbir Atouf,

2- عبد القادر كهيوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حاضرة وطنية"، ص. 12: ضمن عبد المالك ناصري (تنسيق)، المدن المراسي في تاريخ المغرب، (الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2013).

توسع بشكل كبير ومستترسل وغذى قلب وشرابين المدينة. وكان لاكتشاف مناجم الفوسفات بالشاوية/ ورديفة أثره الفعال على تغيير بنية نشاط الميناء واحتلال الدار البيضاء المكانة الأولى على الصعيد الوطني. و"شهدت سنة 1930 تصدير أكثر من مليون طن من الفوسفات الخام عبر الميناء. [...] الذي ارتفع نشاطه بشكل متواصل، ليصبح الميناء الرئيسي للحماية"¹، خاصة بعد ربط المناطق المعدنية بالميناء عبر خطوط السكة الحديدية، التي انطلقت أشغالها سنة 1920.

انتبه أدام (Adam) إلى مكانة ميناء الدار البيضاء وتأثير تطوره القوي على تنمية المدينة والاقتصاد المغربي ككل، حين يكتب: "إذا كان الميناء قد لعب الدور الأساس في تطوير مدينة الدار البيضاء بأكملها، فإن تنمية المغرب الحديث والمعاصر ترتبط ارتباطا وثيقا بقوة ميناء الدار البيضاء، أولا وقبل كل شيء"². وبهذا، هندس الاستعمار استراتيجية محكمة لتجهيز البلاد عبر الدار البيضاء ومينائها الكبير؛ ومن ثم، ستشهد نمو حضريا ضخما، أملت الدينامية، التي عرفتها طيلة الحقبة الاستعمارية، فارضة ارتفاع الطلب على الوعاء العقاري، فظهرت وتقوت المضاربات؛ مما دفع الإدارة الاستعمارية إلى وضع ميكانيزمات وآليات جديدة لتنظيم المجال وضبط التوسع العمراني العشوائي.

1.2. ولادة نسيج حضري جديد يتناقض مع مفهوم المدينة العربية-الإسلامية
ظهر نسيج حضري جديد، منذ بداية الحماية الفرنسية، يعارض المدينة العربية-الإسلامية، وذلك ما يمكن تجسيده عبر مخططين طبعيا مجال وعمران الدار البيضاء طيلة الفترة الاستعمارية وما بعدها: مخطط هنري بروت (Henri Prost) ومخطط ميشال إيكوشار (Michel Écochard).

1.1.2. مخطط بروت (1913-1945) كأول تصميم حضري

انصب الانشغال الأساس لليوطي على المدينة المغربية "من أجل تخطيطها وإعادة هيكلتها"³؛ ولهذا السبب استقدم هنري بروت، سنة واحدة بعد توليه منصب المقيم العام بالرباط، وهو الذي أصبح المهندس-المعماري الرسمي له. وكان بروت قد اكتسب شهرة عالمية بعد فوزه بالجائزة الدولية الأولى، الخاصة بتهيئة مجال ميناء أنفيس (Anvers) الموجود في بلجيكا؛ ولذلك "كلفه

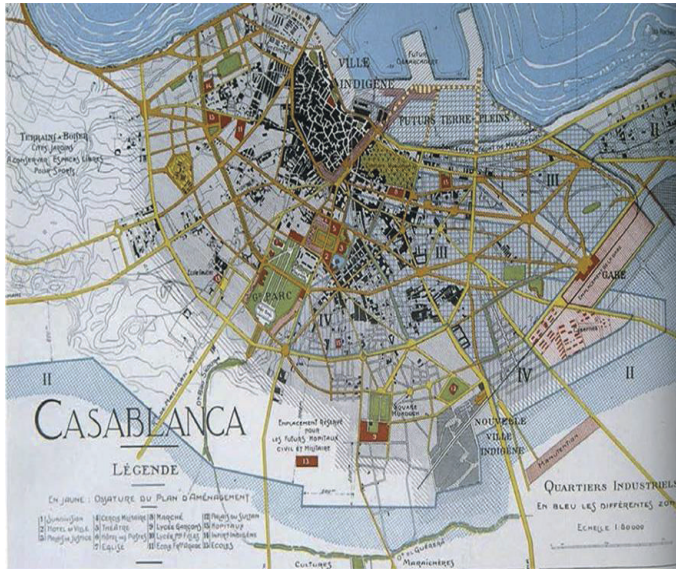
1- عبد القادر كهيوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حضرة وطنية. 20-21.

2- André Adam, *Histoire de Casablanca*, op. cit., p. 98

3- أبو هاني، "ملاحظات حول المدينة والمجال الحضري"، مجلة أبحاث، العدد 3، دجنبر (1983)، 58.

بتشييد أو إعادة تهيئة مدن جديدة: كالرباط، والدار البيضاء، ومكناس وفاس ومراكش وأكادير"¹ وغيرها.

ومن أجل تسهيل مأمورية بروتست، والحد من نفوذ المضاربين العقاريين صدر "ظهير حول التعمير، في أبريل 1914، وهو أول قانون للتعمير في المغرب"² رسم ضوابط تنظيم المجال والتهيئة العمرانية. وقصد استكمال هذا القانون الحضري، الأول من نوعه، "صدر ظهير آخر سنة 1917، يهدف إلى ضبط عمليات تجهيز وتجزئة الأراضي"³. واعتمد بروتست على هذين القانونين، وجربهما فوق أرض واقع وجغرافية مدينة الدار البيضاء، في إطار "مخطط التوسع الحضري للمدينة"، الذي بدأ في بلورته منذ سنوات ما بين الحربين العالميتين، وهو المخطط-التصميم، الذي يركز أساسا على "التمييز الحضري" (la ségrégation urbaine) قصد عزل أحياء الساكنة المغربية عن الأحياء الجديدة المخصصة لإيواء المستوطنين-المعمرين الأوروبيين الوافدين على المدينة: يُنظر تصميم بروتست أسفله.



"تصميم بروتست لتهيئة مدينة الدار البيضاء"⁴

1- المرجع السابق، 59.

2- André Adam, *Histoire de Casablanca*, 1968, op. cit., p.104.

3- Ibid., p.105.

4- <https://www.google.com/search?q=henri+prost+casablanca&biw=1280&bih=705&12/07/2015>.

وشكل مخطط بروس أول محطة هامة في تنظيم مجال المدينة ومحاولة هيكلتها، وهو مخطط وظيفي بقي ساري المفعول حتى سنة 1945؛ إذ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن استخدام مهندس التصق اسمه هو الآخر بتوسع مدينة الدار البيضاء، وهو ميشال إيكوشار، الذي حاول وضع تصميم-مخطط هندسي يرمي إلى مواجهة التوسع العمراني العشوائي، الذي طبع محيط المدينة، منذ سنوات 1930.

2.1.2. مخطط إيكوشار ومحاولة احتواء التوسع العمراني والسكن العشوائي-الاجتماعي (1946-1952)

استُخدم إيكوشار إلى الدار البيضاء سنة 1946، وحينها وجد النسيج الحضري يتخبط في عدة مشاكل مستعصية الحل؛ بحيث "تجاوز عدد سكان المدينة 650 000 نسمة، من ضمنهم 100 000 فرد يقطنون بأحياء الصفيح"¹، التي اكتظت بالمهاجرين الجدد القادمين من الشاوية والجنوب المغربي. وتعددت وضعية هؤلاء المهاجرين مع مرور الزمن وتزايد عدد سكان المدينة. وخلال سنوات 1936-1952، انتقلت ساكنة الدار البيضاء من "260 000 نسمة إلى حوالي 700 000 نسمة"²، أي بنسبة تزايد قياسي وطني تجاوز 269%، خلال 16 سنة، وبمعدل تزايد سنوي بلغ 27 500 فرد.

وقد أسهمت عدة أسباب في هذا التزايد السكاني الموهول، الذي يعود أساسا إلى هجرة كثيفة شجعتها سنوات الجفاف المتعاقبة، والتي ضربت المغرب خلال أعوام 1936-1937 و 1945-1947. زد على ذلك، التحولات الناتجة عن العنف الاستعماري المادي والرمزي، التي خولت للمعمرين-الأوروبيين الاستحواذ على أهم الأراضي الصالحة للفلاحة والزراعة، بالإضافة إلى تطور الأنشطة الاقتصادية عبر الأوراش الصناعية-الاستعمارية التي استطاعت جذب وجلب الآلاف من المهاجرين.

فرضت كل هذه العوامل مشتركة على صغار الفلاحين أن يغادروا أراضيهم كي يصبحوا منتجين بدون وسائل إنتاج في مختلف الأنشطة التي يملكها الأوروبيون في المدن الساحلية، التي "استقبلت

1- عبد القادر كميوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حضرة وطنية".27.

2- Royaume du Maroc-Ministère de l'Économie-Division de la Coordination économique et du Plan, *Tableaux économiques du Maroc 1915-1959* (Rabat, 1960), pp. 24-25.

386 000 مهاجر خلال سنوات 1954-1956، واستقطبت منها الدار البيضاء نحو 77%¹، حسب بحث ميداني هم المسلمون فقط، دون احتساب آلاف يهود المغرب، الذين استقروا بالدار البيضاء والذين يقدرهم مونطاني (Montagne) بـ"100 000 نسمة"²، سنة 1950؛ مما يقربنا من نصف مليون مهاجر مغربي استقروا بالدار البيضاء في ظرف وجيز لم يتعد ست سنوات فقط (1950-1956). وقد استنتج مونطاني من البحث الجماعي الميداني، المنجز سنوات 1948-1950، بأن حوالي " مليون من المهاجرين المستلبين، قد نزحوا من القبائل [...] نحو المراكز الحضرية الجديدة [...] وهم من شكلوا البروليتاريا المغربية الناشئة بالدار البيضاء"³، على الخصوص، وذلك خلال سنوات 1912-1950.

وفي ظل هذه الظروف، توسعت حاضرة الدار البيضاء، مجاليا، وسكانيا، وعمرانيا، فارضة نفسها على باقي المدن الأخرى؛ الشيء الذي أهلها لاستقطاب تراكم الرأسمال الضروري لتنميتها على جميع المستويات. وكان من نتائج هذا التوسع الحضري، المقنن أحيانا وغير المضبوط في أغلب الحالات، ظهور أحياء سكنية عشوائية واسعة النطاق؛ ولهذا السبب استقدم إيكوشار وأسندت له مهمة بلورة ووضع المخطط الحضري الثاني، الذي عرفته الدار البيضاء، والذي يهدف إلى عقلنة وترشيد تطورها المستمر. ووضع إيكوشار استراتيجية تعتبر جديدة، آنذاك، في مجال التعمير، وتدور أساسا حول ثلاثة محاور، رصدها عبد القادر كعيوا، وهي، باختصار، كالتالي⁴: أولا، إدماج التخطيط الحضري للدار البيضاء في إطار أوسع وأشمل، يهتم إعداد التراب المغربي ككل. ثانيا، وضع مخطط دقيق ومحكم لتهيئة مجالية تعتمد على مؤهلات الدار البيضاء كحاضرة في طور التكوين. ثالثا، احتواء وتحسين ظروف السكن الاجتماعي الخاص بالفئات ذات الدخل المحدود.

ووفق هذه الاستراتيجية العمرانية سيتم وضع مجموعة من المخططات والتصاميم الحضرية الجديدة لباقي المدن المغربية الكبيرة، وذلك انطلاقا من تجربة المخطط الثاني للدار البيضاء، الذي رأى النور، بصفة قانونية، عبر ظهير 25 شتنبر 1952. ومن أهم التوجهات العامة لهذا المخطط الجديد: "التطور الطولي للمدينة نحو مدينة فضالة (المحمدية حاليا)؛ بحيث بدأ الحديث عن الدار

1- J.C. Petit et B. Caste baron, «Contribution à l'état des mouvements de la population marocaine», in *BESM*, n° 68 (1956), p. 44.

2- Robert Montagne (sous direction), *Naissance du prolétariat marocain*, (Paris, Peyronnet et Cie, 1950), p. 138.

3- R. Montagne, op. cit, p.13.

4- عبد القادر كعيوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حاضرة وطنية".28.

البيضاء الكبرى لأول مرة ضمن هذا المخطط. [...] وسوف يظل تطور الدار البيضاء مؤطرا بهذا المخطط لمدة تقارب أربعين سنة في انتظار المخطط الثالث للمدينة والذي ستضعه الدولة سنة 1984¹.

إن إحدى الإشكاليات المطروحة، انطلاقا من قراءتنا لمخططي بروس و إيكوشار، تكمن في تشويه الأحياء العتيقة، التي تعتبر ذاكرة المدينة البيضاء، والتي أصبحت، في نهاية المطاف، يتيمة تاريخها غير الطبيعي. ولعل هذا ما انتبه إليه سعيد مولين (Said Mouline) حين يذكر بأن هذه المسألة تحيل على "إشكالية شمولية معقدة، تفيد تشويه العمران [العربي-الإسلامي] من طرف الغرب"². ولعل ما يزيد الأمر تعقيدا هو نفي مميزات وخاصيات المدينة المغربية، كما تم نفي كل وحدة عضوية للمدينة العربية-الإسلامية، عموما، وذلك ما يؤكد ليوطي: "إننا، هنا، في كل إفريقيا الشمالية، نجد تحت أقدامنا بقايا روما. [...] وتشتكي المدينة الإسلامية، في كل مكان، من نقص فادح في الوحدة والجمالية، وهي تتلخص في عناصر لا تربطها أية علاقة عضوية"³. يهدف هذا الطرح يبقى طرحا أيديولوجيا استعماريًا إلى تبرير تدخل السلطات الاستعمارية وفق أغراضها وأهدافها، وبالتالي ضرب عصفورين بحجر واحد: أولا، "الحماية" المزعومة للسكانة الأوربية، ومن ثم نفهم عزلها، جغرافيا واجتماعيا، عن السكان المحليين، التي تم أقصيت من السكن اللائق، وثانيا، محاولة مراقبة العمال والمهاجرين المكسدين بالآلاف في أحياء الصفيح، والذين يمثلون القوى المنتجة الضرورية للرأسمالية الاستعمارية التي تستغلهم بأجور.

2.2. دور الهجرة في نشأة أحياء مدن الصفيح لأول مرة في تاريخ المغرب

ترتب عن حالة التطور الاقتصادي والاجتماعي عهد الاستعمار، تسريع وثيرة الهجرة نحو المراكز الحضرية الجديدة، أملا في الحصول على دخل قار، وتعتبر "السيولة النقدية" (l'argent liquide) الدخيلة رمزا كونيا لتفريق وتشتيت وشائج الروابط الاجتماعية وأداة فعالة للاندماج في مسلسل (processus) الرأسمالية العالمية. وبذلك، تشكلت علاقات اجتماعية وسلوكيات استهلاكية ونفسية جديدة، فصارت الحاجة إلى "السيولة النقدية" أكثر من ضرورة؛ بل معيارا للتباهي: "تدفع المرشحين للهجرة بموجات كاملة [...] في سفر لا ينتهي ولا يعود منه إلا القلائل؛

1- عبد القادر كميوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حضرة وطنية 28-29.

2- Saïd Mouline, « La ville et la maison arabo-musulmanes », in *BESM*, n°198 (1983), pp.147-148.

3- Hubert Lyautey, *Lettres marocaines et autres écrits suivies de textes sur Lyautey*, (Casablanca, La Croisée des Chemins, 2010), p.166.

وهكذا، فالحاجة الملحة إلى "السيولة النقدية" دقت ناقوس خطر نهاية الحياة الفلاحية، وبشكل لا رجعة فيه¹.

وبعد اكتشاف المهاجرين الجدد للمجال الحضري البياض، طُرِحَ مشكل السكن بحدة، ومن ثم نفهم محاولتهم لاسترجاع وتوظيف مواد الصفيح والورق المقوى والخشب أو القصدير، واستعمالها في بناء مساكن عشوائية واسعة النطاق تحيط بالمصانع الموجودة بالحي المسمى "كريان سنطرال"؛ وهكذا ستظهر، على "أنقاض كريانات الطوب، مدينة صفيحية تحمل اسم "كريان سنطرال"، وهي تركيب للكلمة المشتقة من الكلمة الفرنسية "كاريير" ("carrière" بمعنى مقلع)، وهو الاسم الأول للشركة المركزية للبخار [...]. وهذه المدينة الصفيحية اسم عرف نشأته في البياض، ويقصد به سكن غير لائق مبني بمواد مستعملة يتم استعادتها كإصفاخ². ومن هذا المنطلق، تشكلت مدن-أحياء الصفيح (les Bidonvilles) طوال سنوات 1920-1930، بضواحي المدينة الصاعدة، التي أصبحت العاصمة الاقتصادية للبلاد في هذه الفترة.

أصبحت الدار البيضاء بمثابة مختبر واسع يمثل مجتمعا استهلاكيا ضروريا، بالنسبة إلى الآلاف من المهاجرين الباحثين عن "السيولة النقدية" أو أجر قار اكتشفوه من خلال احتكاكهم مع المستوطنين-الأوروبيين، في الدار البيضاء، التي عرفت عدة تحولات نتيجة لتطورها الاقتصادي، المتزامن مع نشأة أحياء-مدن الصفيح وتشكيل "بروليتاريا" (Prolétariat) أو بالأحرى شبه "بروليتاريا مغربية"³. وبالإضافة إلى كريان سنطرال، نذكر أيضا، "كريان عين السبع"، ثم "كريان بن مسيك" و"كريان لاحونا" و"كريان زارابة" و"كريان الشابو". ونشأت "مدن-أحياء الصفيح" نتيجة حتمية لتحولات عدة أفرزتها المؤسسة الاستعمارية ورافقت تطوراتها الاجتماعية والحضرية؛ مما تسبب في طرح عدة مشاكل عويصة، خاصة على مستوى "الصحة العمومية"⁴، كما أشار إلى ذلك مونطاني، الذي لم يذكر، أو على الأرجح لم يعترف، بأن تجمع جزء هام من السكينة المغربية في تلك "المدن الصفيحية" يتوافق مع أهداف السلطات الاستعمارية، التي أصبحت تراقب العمال والمهاجرين الجدد بسهولة كبيرة. هذا، دون نسيان توافر "جيش احتياطي" من العمال-المهاجرين

1- Larbi Talha, *Le salariat immigré dans la crise, la main d'œuvre maghrébine en France*, (Paris, Éd. CNRS, 1989), p. 105.

2- جمعية ذاكرة وكرامة، كريان سنطرال الحي الحمدي، ط. 1، ج. 1، (الدار البيضاء، نشر المبادرة الحضرية، 2011)، 14.

3- لأنها لا تتقاسم الظروف التاريخية نفسها، التي عاشتها البروليتاريا الغربية، على مستوى الوعي الطبقي، مثلا، بالمفهوم الماركسي الصحيح.

4- Robert Montagne, op. cit., pp.138-139.

والمهاجرين، الذين ينتظرون فرصا للعمل، يستفيد منها، بالدرجة الأولى، المعمرون وأرباب العمل الأوربيين، الذين كانوا في أمس الحاجة إلى يد عاملة لا تكلفهم إلا القليل، مقارنة مع ما هو عليه الأمر في أوروبا الغربية.

وفي ظل التوسع العمراني لمدينة الدار البيضاء بفعل الهجرة الكثيفة، التي صاحبت التطور الاقتصادي الاستعماري، طيلة سنوات 1930-1950، حاولت سلطات الحماية احتواء هذا التوسع قصد ضمان استقرار ساكنة عمالية ضرورية بالنسبة إلى الباترونا الأوربية. تجسد ذلك في تشجيع الشركات على بناء منشآت سكنية لصالح عمالها المغاربة: "مسكن إضافة إلى دكاكين، حمام، حائط مسور بأقواس مفتوحة على الخارج، شكل [...] سيتم تعميمه على باقي تراب المغرب. وهكذا سيصبح "الحي المحمدي"¹، خلال الخمسينيات، كما هي الدار البيضاء، حقلا للتجريب المعماري [...]، وإيكوشار هو من اعتمد مشروع العشر مساكن ذات القاعدة المربعة (8 أمتار على 8 أمتار)، [...] وهو أيضا من اعتمد البنايات العمودية"²،

وتتجلى ملامح الهجرة القروية والداخلية بصفة أوضح في مدينة الدار البيضاء؛ حيث يزدحم الكادحون في أحياء الصفيح-القصدير المكتظة بالمهاجرين القرويين القادمين من الشاوية ودكالة وسوس، وكذا شرق المغرب. وفي "سنة 1950 كانت نسبة 10 % من الساكنة البيضاء تعيش في أحياء القصدير"³؛ أما في عام 1953، فقد بلغ عدد ساكنة أحياء الصفيح، التي نبتت كالطفيليات بضواحي المدينة الصاعدة: "ما يناهز 150 000 نسمة"⁴، ويمثل كل من "كاريان سنطرال" (56 667 نسمة) و"كاريان بن امسيك"⁵ (50 093 نسمة) لوحدهما، ما يناهز 107 000 نسمة، أي نسبة تفوق 67% من المجال الصفيحي-القصديري البيضاوي، آنذاك، وذلك ما توضحه "الخريطة رقم 2.

1- تفضل، هنا، "كاريان سنطرال" أو "كاريان سنطرا"، كما يسميه سكان الحي؛ "لأن اسم "الحي المحمدي" استعمل بعد استقلال المغرب سنة 1956، نسبة إلى محمد الخامس، الذي يعتبر أول من لقب بالملك، في تاريخ المغرب المعاصر، عوض السلطان قبل ذلك .

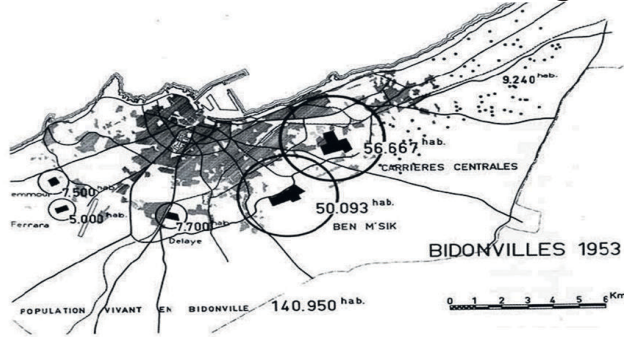
2- جمعية ذاكرة، 15.

3- جون واتيربوري [ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون] أمير المؤمنين. الملكية والنخبة السياسية المغربية، (الرباط، مؤسسة الغني للنشر، 2004)، 270.

4- Federico García Barba, « L'intrigue Ecochard et Casablanca », 2012 : <http://www.arquiscopio.com/pensamiento/la-trama-ecochard-en-marruecos/?lang=fr>, 13/07/2015.

5- André Adam, *Le bidonville de Ben Msik à Casablanca*, (Alger, Université d'Alger, 1950) 199 p.

"خريطة رقم 2": مواقع الأحياء الصفيحية الموجودة بهوامش الدار البيضاء، من رسم إيكوشار¹



ولعل أهم ما يميز هذه المرحلة/المحطة (1912-1956) الحاسمة، هو تشكيل حركة عمالية ضخمة وواسعة النطاق؛ ولكنها تفتقر إلى الوعي العمالي-الطبقي، بحكم أن مفاهيم النقابة والوعي النقابي-العمالي لم تبلور وتتضح إلا بعد الحرب العالمية الثانية؛ بل بقي التنظيم العمالي مقتصرًا على المعمرين-الأوربيين، أساسًا، ويجب انتظار أواخر عهد الحماية من أجل ملامسة "بداية انخراط العمال المغاربة في النقابات"²، والتي استحوذت عليها مدينة الدار البيضاء.

III. محطة العنف الحضري بامتياز: من الاستقلال إلى انتفاضة الدار البيضاء الدامية (1956-1981)

وجد المغرب نفسه، بعد حصوله على الاستقلال، خاضعًا لإرث مزدوج: إرث تاريخي يعود إلى الماضي الطويل بعاداته وتقاليده العتيقة، وإرث استعماري يكمن في آليات ومؤسسات-عصرية دخيلة وبني تحتية جاهزة ومعقدة ليست بالضرورة ملائمة لواقع البلاد. وتميزت هذه الفترة، التي دامت ربع قرن (1956-1981)، بانتفاضتين³ حضريتين عنيفتين-دمويتين، عرفتهما مدينة الدار البيضاء: انطلقت الأولى يوم 23 مارس 1965، "من الأحياء الشعبية-الصفيحية"⁴؛ بحيث كانت بمثابة قنبلة موقوتة انفجرت بطريقة فجائية، معبرة عن الفقر والعطالة والبؤس واليأس، الذي أصيبت به فئات عريضة من المجتمع البيضاوي. وتعتبر هذه الانتفاضة الحضرية الأولى من نوعها في تاريخ

1-Federico García Barba, op. cit

2- من أجل فهم خاصيات ظهور النقابات في المغرب والدار البيضاء، على الخصوص، راجع: عبد اللطيف المنوني ومحمد عياد، الحركة العمالية المغربية، (الدار البيضاء، منشورات دار توبقال للنشر، 1985)؛ والعدد الخاص بالعمال والنقابات بالمغرب، مجلة أبحاث، عدد 13 (1986)، وهي أعمال لم تُتجاوز بعد.

3- دون نسيان انتفاضة 14 دجنبر 1990، التي همت مدينة فاس أساسًا، والتي لن نخوض في تفاصيلها.

4- Mohamed Ben Hlal, «Syndicat et politique au Maroc (1955-1981)», pp.227-228 : in N. Sraib et autres, *Le mouvement ouvrier maghrébin*, (Paris, Éd. CNRS, 1985).

المغرب المستقل.

وترجع الأسباب المباشرة لهذه الانتفاضة إلى نشر وزير التربية الوطنية، يوسف بلعباس، مذكرة في شتاء 1965، يحدد فيها معالم سياسة تعليمية نخبوية، مفادها أن التلاميذ البالغ سنهم 18 سنة فأكثر، حين نهاية السلك الأول، سوف يُجرمون من الانتقال إلى السلك الثاني، وعوض ذلك، سيُوجهون بجانب الراسيين، نحو التعليم التقني والمهني؛ الشيء الذي أثار غضب أغلب التلاميذ المعنيين وأولياءهم، الذين استنكروا هذا القرار عبر انتفاضة مارس 1965 المعروفة. وقد "التحق العاطلون وعصابات الأزقة بتلاميذ وأساتذة الثانويات، وتغلب العنف، فانتشر المتظاهرون عبر أحياء المدينة الشعبية بالدار البيضاء" لتعم هذه الانتفاضة وتشمل أهم باقي مدن المملكة.

وبرهنت انتفاضة 23 مارس 1965، على العلاقات الرابطة بين مشاكل الشباب المتعددة والتراجع الاقتصادي-الاجتماعي والتنظيم الحضري غير المتحكم فيه، بالإضافة إلى مشاكل التزايد الديموغرافي والسكن غير اللائق والبطالة وانعدام الأمن: وكلها مواصفات تعيشها الحواضر الكبرى، التي تعكس مدى تحديات التمدين والإكراهات التي تطرحها البيئة المحلية-الحضرية المصاحبة لتوسع الدار البيضاء وعمرانها. "ولم يكن للأحزاب السياسية والنقابات أي ضلع في نشوب الاضطرابات، كما أنها عجزت في ما بعد عن التحكم في انفجار العنف. لقد باغتت الأحداث مجموع الطبقة القيادية"². وكانت نتائج هذه الأحداث قوية، بحكم أن الكثير من المغاربة الأبرياء تركوا أرواحهم فوق مسرح الأحداث: "ذكر شهود ممن دخلوا إلى المستشفيات أرقاما تتراوح ما بين 3000 أو 4000 من القتلى وقامت الشرطة باعتقال المئات من المتظاهرين"³.

وعلى النقيض من ذلك، نجد بأن الأحداث الثانية، انطلقت يوم 18 يونيو 1981، بعد قرار إضراب عام اتخذته أغلب النقابات الممثلة للعمال والشغيلة المغربية، وخاصة "الكونفدرالية الديمقراطية للشغل" و"الاتحاد الجهوي للدار البيضاء" المنضوي تحت لواء "الاتحاد المغربي للشغل". وقد شلت هذه الانتفاضة حركة العاصمة الاقتصادية، وعرفت أحداثا قوية "نتيجة ارتفاع الأسعار وكرد فعل ضد الحرمان والبرجوازية الفاسدة ومظاهر البдох"⁴. وتمثل هذه الأحداث مرحلة

1- جون واتيربوري [ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون] أمير المؤمنين. الملكية والنخبة السياسية المغربية. 422.

2- جون واتيربوري [ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون] أمير المؤمنين. 420.

3- نفسه، 422.

4- Jean Paskaletto, « Les émeutes de Casablanca », in *Le Monde* du 23 juin 1981.

حاسمة على مستوى الوعي السياسي والتأطير النقابي، وكذا على مستوى التنمية والتهيئة الحضريتين.

1. استمرار نمو الدار البيضاء من خلال التصورات الحضرية المهندسة من طرف إيكوشار
شهد المغرب في هذه الفترة إحصاءين رسميين للسكان: الأول سنة 1960، والثاني سنة 1971، وكلاهما يؤكدان التزايد الثابت لسكان المغرب المتميز بتجديد شبابه وتمدينه المستمر والسريع. ورغم تناقضات الماضي الاستعماري، ورث المغرب، منطقة حضرية متميزة على طول الساحل الأطلسي الأوسط، من القنيطرة إلى الدار البيضاء؛ حيث تركزت هناك أغلب الأنشطة الاقتصادية العصرية، التي استقطبت أعلى نسبة من السكان المحليين والمهاجرين. واستمرت مدينة الدار البيضاء في توسعها العمراني والمجالي وتطور أنشطتها "الصناعية" في إطار التوجهات الحضرية السابقة والعامة التي هندسها إيكوشار؛ وذلك "دون تدخل منظم من طرف الفاعلين المؤسسيين بالمدينة"¹.

حاولت السلطات العمومية-الرسمية الحد من الاستثمارات الخاصة، التي تهم الأنشطة الصناعية، والتي أصبحت تطرح مشاكل لا حصر لها: مسألة التلوث وعلاقتها بالبيئة، السكن غير اللائق بالنسبة إلى العمال والمهاجرين الجدد، ارتفاع صاروخي لأسعار العقار، بحكم ظهور فئات تجارية-اجتماعية جديدة منظمة ووازنة، استطاعت التحكم في المضاربات العقارية، إلخ. وكان رد فعل الدولة هو وضع مخطط-برنامج وطني لإنشاء جهات صناعية جديدة في مختلف أنحاء المملكة؛ بيد أن نتائج هذا المخطط-البرنامج لم تكن في المستوى المرغوب فيه.

ظلت مدينة الدار البيضاء بفضل ديناميتها المعهودة ومناخ الأعمال، الذي يميزها والاستثمارات التي تستقطبها، على الصعيد الوطني، تدعم مكانتها الاقتصادية وتوسع من نسيجها الصناعي، "بفعل تزايد وحدات الإنتاج (55% من المعامل وطنيا) وتركز نسبة عالية من اليد العاملة (60%). وقد لعب الميناء، كما في السابق، دور المحرك الرئيسي في هذه الدينامية؛ إذ تجاوز رواجه خلال هذه الفترة نصف المبادلات التجارية على الصعيد الوطني"². عموما كانت الهجرات القروية والداخلية للمسلمين واليهود (المغاربة)، نحو مدينة الدار البيضاء، وراء النمو الاقتصادي المسترسل والتطور الديموغرافي اللافت للانتباه، في هذه الآونة.

1- عبد القادر كميوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حاضرة وطنية".32.

2- عبد القادر كميوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حاضرة وطنية".32.

2. دور الهجرة في نشأة تشكيلات اجتماعية جديدة بالوسط الحضري البيضاوي
يعتبر دانيال نواه (Daniel Noin)، الذي أنجز عملا ميدانيا، سنتي 1965-1966، أول باحث جغرافي اشتغل في موضوع الساكنة القروية وجاب أريافها، مؤهلا أكثر من غيره لإثارة الانتباه إلى النقائص الفظة التي تشوب معطيات الهجرات القروية والداخلية. ورغم ذلك، فقد ترك لنا معطيات ديموغرافية مُصححة، نعتبرها غاية في الأهمية: "في سنة 1960 بلغ عدد المغاربة المسلمين 500 000 11 نسمة؛ أما في سنة 1965 فقد ارتفع هذا العدد ليصل إلى 13 033 000 نسمة"¹؛ أي زيادة ملحوظة بلغت 1 533 000 نسمة، في ظرف خمس سنوات فقط.

وبلغت الساكنة الحضرية المغربية (المسلمة) سنة 1960: "3 000 000 نسمة، وارتفع العدد بعد ذلك ليصل إلى 4 700 000 فرد سنة 1969"²؛ أي زيادة 1 700 000 نسمة في ظرف تسع سنوات، بمعدل يفوق 188 800 نسمة كل سنة. وسجل عدد السكان القرويين: "8 500 000 نسمة، سنة 1960، تمثل نسبة 74% من مجموع الساكنة المغربية؛ أما في سنة 1969، فقد ارتفع عدد السكان القرويين إلى 10 200 000"³، يمثلون 64,50% من مجموع سكان المغرب. وهذا، يعني بأن الساكنة القروية تقلصت بنسبة 9,50% خلال تسع سنوات؛ الشيء الذي يعني حتما بأن هذا التقلص كان لصالح المدن الكبيرة وخاصة الدار البيضاء، التي استقرت في استقطاب القرويين طيلة الفترة : 1956-1981.

من المفيد محاولة تحديد بعض شروط النازح القروي "النمطي"، الذي يشكل شبه "بروليتاريا مغربية"، تعيش في أحد أحياء القصدير-الصفوح البيضاوية، سنوات 1960-1970. وقد تحول ذلك النازح القروي، مع مرور الزمن، إلى كادح "مُستلب ومُغترب"⁴، معرض دوما للبطالة، وهو الذي يبقى تحت رحمة الدولة في كل فترات حياته اليومية؛ لأنه ليس لكوخته المؤقت، المبني من خليط القصب والطوب والقصدير والصفوح، أي وجود قانوني يُذكر، وتتميز شروطه الوجودية بالهشاشة المستمرة، كما يرصد ذلك جون واتيربوري، بكل جلاء، من خلال العمل الميداني الذي قام به أواسط الستينيات: "وإذا كان بائعا متجولا كان تحت رحمة رجال الشرطة[...]". ويشكل المعاش

1- Daniel Noin, *La population rurale au Maroc*, (Paris, PUF, 1970), p.39.

2- Daniel Noin , op. cit., p.69.

3- Ibid., pp.40-42

4- من أجل رصد ظاهري الاستلاب والاعتزاب الناتجين عن الهجرة، ينظر إلى روايتنا الأدبية المنشورة : الكبير عطوف، الاعتزاب المزدوج، 105(أكادير، طباعة ونشر سوس، 2012).

الذي يتقاضاه من الدولة كلا أو جزءا من موارده إذا كان من قدماء المقاومين أو من العسكريين المتقاعدين. وإذا كان له عمل فإنه يرغب في الاحتفاظ به مهما كلفه ذلك من ثمن، ولا شك أنه قادر على العنف، مثلما ظهر في انتفاضة سنة 1965، إلا أن ردود فعله قصيرة وعفوية وغير منضبطة¹. هذه باختصار أهم الشروط التي رسمت شكل أو نمط كادحي أحياء الصفيح البيضاء، أواسط 1960، والتي لم تتغير في عمقها لاحقا، كما تدل على ذلك انتفاضة سنة 1981، التي أكدت للجميع أن المشاكل العالقة والعوامل نفسها، التي كانت وراء انتفاضة مارس 1965 هي نفسها، التي رسمت معالم أحداث 1981.

إن أهم ما طبع هذه المرحلة التاريخية هو هجرة جل التجار الفاسيين إلى مدينة الدار البيضاء، التي أصبحت الرئة التي يتنفس منها المغرب وقلبه النابض، وذلك من أجل منافسة التجار التسوسيين في قلب العاصمة الاقتصادية والحاضرة الوطنية الأولى. ولا تنتمي هاته الجماعة "إلى الفئات المحظوظة، ولا تتميز بثروتها أو بسمعتها الثقافية أو بمكانتها داخل الإدارة. غير أنها استطاعت [...] أن تقتحم الطبقة القيادية على المستوى الاقتصادي؛ وكذلك النخبة السياسية، [...] وتشكل الدار البيضاء المركز الرئيسي لنشاطها التجاري. وتكتسي تجارة التقسيط أهمية بالغة في المغرب، ويسيطر التسوسيون على أهم فروعها"². وبذلك، أصبح التسوسيون يجسدون فعلا شبه "برجوازية" صاعدة يحسب لها ألف حساب داخل وخارج الدار البيضاء.

وقد تميزت الدار البيضاء، أيضا، باستقطاب هجرة اليهود المغاربة، منذ أواخر القرن التاسع عشر، لتأخذ، هذه الهجرة، شكلا كثيفا طيلة "فترة الحماية"³. وبعد إنشاء دولة إسرائيل، سنة 1948، تجاوز "عدد اليهود في المغرب 203 000" نسمة⁴؛ ولكن هذا العدد انخفض إلى 60 000 نسمة، سنة 1966؛ بحيث إن الكثير من اليهود الأغنياء والمتقنين هاجروا إلى كندا وأوربا؛ أما الفقراء منهم فقد رحلوا أو رُحلوا إلى إسرائيل. وزادت الحرب العربية-الإسرائيلية (يونيو 1968 وأكتوبر 1973) ثم المحاولتين الانقلابيتين العسكريتين (1971-1972) في وثيرة الهجرة اليهودية، ولم يبق إلا "4 000 يهودي مغربي"⁵، فضل معظمهم الاستقرار في مدينة الدار البيضاء

1- جون واتيروري [أمير المؤمنين. الملكية والنخبة السياسية المغربية] ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون 271-272.

2- جون واتيروري [أمير المؤمنين. الملكية والنخبة السياسية المغربية] ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون 190.

3 - حول تطور اليهود المغاربة في عهد الحماية، يُنظر إلى كتاب دوريس بنسيمون-دوناث :

Doris Bensimon-Donath, *Évolution du judaïsme marocain sous le Protectorat français*, (La Haye-Paris, 1968).

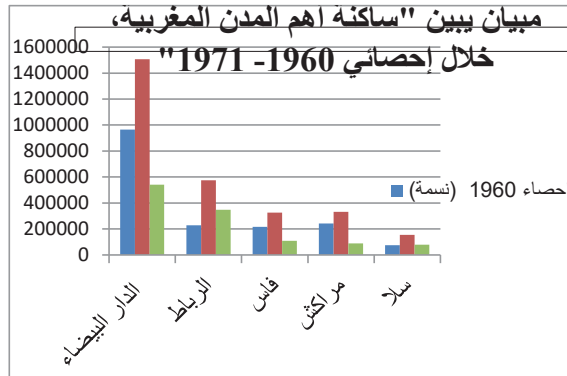
4- Agnès Bensimon, *Hassan II et les Juifs, histoire d'une émigration secrète*, (Paris, Éd. Seuil, 1991), pp.228-229.

5- يُنظر مقال "الجالية اليهودية المغربية إلى أين"، الصحيفة، رقم 45، 21-27 دجنبر 2001.

أو كانوا مستقرين فيها قبل ذلك. وحسب شهادة جون واتيربوري، "أثرى كثير من المغاربة عن طريق الاتجار بمجازات السفر وتهريب الرساميل إلى الخارج، وشراء العقارات التي تركها المهاجرون"¹ اليهود؛ ولكن ما لم يذكره واتيربوري هو استفادة "أطر عليا وأعضاء في الحكومة، آنذاك، من هذه الهجرة التي كانت تُدبر بطريقة سرية للغاية من طرف الموساد وبمساعدة السلطات المغربية"².

وتكمن دوافع الهجرة في مخلفات العنف الاستعماري الذي يجسده نموذج الدار البيضاء بامتياز، زد على هذا أنه في سنوات 1960-1970، كانت المحاصيل الزراعية هزيلة جدا نتيجة الجفاف، بالإضافة إلى جاذبية المدينة وما تقدمه من امتيازات: مدارس، مرافق اجتماعية، إمكانيات التواصل السريعة، أجور مرتفعة، ظروف وشروط التسلية الإيجابية، الخ.

ولعل مقارنة النمو الحضري أو ديموغرافية التمدن في أهم الحواضر المغربية، خلال الإحصاءين الرسميين لهذه المرحلة (1960-1971) لكفيل بأن يعطينا فكرة واضحة عن التطور السكاني في الدار البيضاء، على وجه الخصوص، كما يظهر من خلال "المبيان التالي"³:



نلاحظ بأن كل المدن الخمس، التي تشكل أهم نواة النسيج الحضري المغربي، تسجل ارتفاعا هاما في ساكنتها، ما بين الإحصاءين الرسميين (1960-1971)؛ ولكن طبيعة هذا الارتفاع الديموغرافي تبقى غير متكافئة بين المدن المعنية؛ بحيث نجد أن الدار البيضاء كان لها نصيب الأسد، بزيادة عددية تفوق بكثير كل المدن الأخرى، تجاوزت 75 مرة، ما كانت عليه الوضعية منذ بداية

1- جون واتيربوري [ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون] أمير المؤمنين. الملكية والنخبة السياسية المغربية. 175.

2- Agnès Bensimon, op. cit., pp.178-199.

3- R. G. P. H. (Recensement Général de la Population et de l'Habitat) 1960, 1971.

الحماية. وتسجل الدار البيضاء، أيضا، أعلى زيادة عددية، مقارنة مع كل المدن المغربية، بلغت أكثر من 541 000 نسمة، خلال إحدى عشر سنة؛ أي بمعدل يفوق بقليل 49 190 نسمة كل سنة. وقد انتقلت ساكنة هذه المدن مجتمعة من 1 727 788 نسمة، سنة 1960، إلى 2 894 807 نسمة، سنة 1971؛ أي بزيادة تفوق 1 167 000 نسمة، في ظرف إحدى عشر سنة، وبمعدل سنوي يتجاوز 106 000 فرد، استقر أغلبهم في الدار البيضاء. وتكمن أسباب النمو الديموغرافي المسجل في الهجرة، أساسا، باختلاف أنواعها، إضافة إلى التزايد الطبيعي.

وبعد مخاض طويل، نشأت تشكيلات اجتماعية جديدة في الوسط الحضري البيضاوي، تكمن في ولادة شبه "بروليتاريا" مغربية هائلة عدديا، غير واعية بذاتها وغير منقبة، طيلة سنوات الحماية (1912-1956)؛ ولكنها أنتجت في نهاية المطاف، حركة عمالية ضخمة، كما وكيفا، اكتسبت "وعيا طبقيًا" أهلها للدفاع عن حقوقها، في أكثر من مناسبة، خاصة خلال سنوات 1965-1981. ونضيف أيضا، ظهور فئات اجتماعية تجارية جديدة، من بينها الأرستقراطية السوسية الصاعدة، التي استطاعت منافسة الأرستقراطية العريقة الفاسية؛ بل تفوقت عليها تجاريا-اقتصاديا واجتماعيا وحتى سياسيا.

IV. خلاصات عامة وحلول ممكنة

تعتبر مقارنة ليوطي وبروست للمدن المغربية، مبادرة جديدة، آنذاك؛ لأن المغرب استعمل مختبرا تجريبيا، بامتياز، بالنسبة إلى مفهوم "التهيئة الحضرية وما صاحبها من تنظيمات قانونية سابقة لما عرفته فرنسا حتى 1918-1919".¹ وهذا ما يفسر استغلال التجربة البيضاوية على الخصوص، التي اقترحها بروست إبان تحرير قانون 1919، المتبوع بقانون 1924، وهما قانونان طبعا التنظيم الحضري-الاستعماري، الذي ولج أبواب فرنسا، منذ أواسط سنوات 1920.

إن ظاهرة التحضر في "دول ثالثة"، كالمغرب، لم تتطور بشكل ذاتي وفق سيرورة تاريخية طبيعية ارتبطت بالتقدم التكنولوجي-المادي والمعرفي الناتجين عن الثورات الزراعية والصناعية والثقافية، التي عرفها الغرب؛ وإنما ارتبطت بالتوسع الاستعماري، الذي فُرض على المنطقة، فتزايد النمو الديموغرافي وارتفعت معدلات الهجرة، وتفككت أحوال البادية، التي أُفرغت من سكانها النشيطين، الذين تكدسوا في مدن-أحياء الصفيح، ينتظرون عملا مأجورا-دخيلا بالأوراش

1-Pascal Garret, « Casablanca confrontée à l'Etat colonisateur ... », p. 34: in Hélène Vacher, *La ville coloniale au XX^e siècle, d'un sujet d'action à un sujet d'histoire*, (Paris, Maisonneuve-Larose, 2005).

الاستعمارية، في المدن الساحلية؛ مما تسبب في العديد من المشاكل الاقتصادية-الاجتماعية والثقافية والبيئية.

إن كل المخططات-التصاميم الثلاثة¹، التي رسمت المعالم الكبرى لتنظيم المجال والعمران في الدار البيضاء، منذ الحماية حتى الفترة الراهنة، ترجع إلى مهندسين فرنسيين بالأساس؛ مما يعني تبعية هذه المدينة للمهندسة المعمارية الغربية-الفرنسية عبر تاريخ تمدنها السريع. ولعل أهم الإشكالات العويصة، التي صاحبت تهيئة مجال الدار البيضاء تتمثل، بالأخص، في انتشار السكن العشوائي-الشعبي، الذي ما يزال يرهق كاهل السياسات العمومية المتعاقبة؛ وهكذا، وجد المغرب نفسه في مواجهة تحديات مستعصية تحيل على ما يسمى بـ "تريف المدينة"، كواقع تاريخي، يطرح مشكل السكن الشعبي؛ إذ إنه "ياعاز من البنك الدولي تبنى سياسة إعادة هيكلة مدن التصدير بإدماجها في المدينة على مستوى الإسكان والتجهيز الجماعي والنشاط الاقتصادي؛ إلا أن إعادة النظر في هذه السياسة بالدار البيضاء"²، على الخصوص، منذ بداية سنوات 1980، لدليل على نهج "سياسة حضرية" لا تخلو من تناقضات، أملت بها جهات دولية، لم تعر أي اهتمام للخصوصيات المحلية. ولعل وضعية المغرب، هذه، تذكرنا بحالتي تونس والجزائر؛ بحيث بدأت البوادي، منذ سنوات الاستعمار، تغزو المدن الساحلية وتغير طبيعة علاقاتها مع العالم القروي.

والسؤال الذي يطرح نفسه إلحاح، هنا، هو: إلى أي حد يمكن للسياسات العمومية-الحضرية أن تأخذ بعين الاعتبار التحولات السريعة الأهم، التي تصاحب ظاهرة التمدن وعلاقاتها بالهجرة، خاصة تلك التي تتجلى في تصاعد ظاهرة العنف، التي هزت وخلخلت المجتمع الحضري، الشيء الذي تكرر أكثر من مرة، في الدار البيضاء، التي عاشت عدة انتفاضات شعبية ترمز إلى فشل التنمية الحضرية وتنظيم المجال. وتمثل الدار البيضاء، لوحدها، ظاهرة مثيرة للقلق، بسبب توسعها الموهول والسريع، في غياب التخطيط الحضري-التموي اللازم والتدبير العقلاني المناسب، على حساب تقليص المجال الأخضر والمزروع؛ مما يسهم في التدهور الصحي وارتفاع حدة مشاكل التلوث الخائفة وتزايد حجم النفايات، التي تطرح صعوبة التخلص منها، بالإضافة إلى التأخر في تقنين التعمير، كأحد مظاهر المدينة العصرية، التي تتميز بتركز الصناعات الملوثة في محيطها وذلك ما يجعلها

1- للأسف لم يتمكن من تقديم المخطط الثالث نظرا إلى ضيق مجال هذه الورقة البحثية التي كانت تضم 45 صفحة في بدايتها، وقد حاولنا جاهدين تقليص حجمها هنا.

2- محمد الناصري، "السياسة الحضرية أداة للسلطة أو وسيلة للتنمية"، [ترجمة الشنتوفي مبارك]، المشروع، العدد 6، يناير-مارس، (1986)، ص.31.

تعاني من عدة مشاكل بيئية، ترجع في الواقع إلى الأساليب المتبعة في تدبير محيطها الطبيعي.

وعلى مستوى الحلول البديلة للمشاكل المطروحة بالنسبة إلى البيضاويين هناك بعض الإمكانيات الملموسة للحد من تدهور البيئة، مثلا، والتي تتجسد في خلق ظروف ملائمة لاستغلال أفضل للموارد، وذلك عبر أربعة أبعاد محورية، حسب بعض الدراسات: "نظرة مستقبلية مشتركة بين الفاعلين بالنسبة إلى محيط عيشهم ونطاقهم الترابي، وإرادة جماعية مشتركة لتحقيقها، ونظام قيم مشترك يعزز الشعور بالانتماء، واستراتيجية للتنمية تندرج في الديمومة وترتكز على تثمين الموارد بكيفية عقلانية وتشاركية"¹.

ويبقى العمل التشاركي-الجماعي الذي تقوم به الجمعيات والمنظمات المواطنة، في هذا الإطار، مسألة ذات أهمية قصوى، على مستويين: استراتيجيه التنمية المحلية وكذا دور الوساطة بين المؤسسات العمومية والسكان المحليين، الذين تُترجم مشاكلهم وهومهم من خلال تلك الجمعيات-المنظمات، التي يجب تقويتها وتشجيعها بتوافر الموارد البشرية والمادية.

ومن يمكن لنا من خلال "اللقاءات الميدانية"²، الذي قمنا به خصيصا لهذا الموضوع، رصد تعدد الآراء حول طرق التدخل قصد إعادة الاعتبار للمدينة القديمة-المركز (Vieux centre-ville) وإثاذا تراثها وذاكرتها التاريخية من التلف والضياع، فهناك من يركز على "وضع سياسة واضحة تهم السياحة الثقافية للمدينة القديمة ونواتها التاريخية، وتثمين تراثها العمراني الذي يجب صيانته وترميمه"³. وهناك من

1- يُنظر العدد الخاص، الذي يحمل عنوان "الموارد الترابية والبيئية والتنمية"، عدد 6، دفا تر جغرافية (2009).

2- استطعنا إنجاز عمل ميداني، ما بين 3 و 18 غشت/أغسطس 2015، وكل المقابلات تمت في مدينة الدار البيضاء (الحي المحمدي، عين الشق، بورك، سيدي عثمان، البرنوصي، سباتة) بغية تحقيق هدف واحد ووحيد، يكن في مقاربة مشاكل الساكنة البيضاء، انطلاقا من "إعطاء الكلمة لمن لا كلمة له"، وبالتالي محاولة ترجمة بعض الحلول المناسبة من خلال رواياتهم الشفوية، المستقاة عبر استجوابات ومقابلات فردية وجماعية مسجلة. وقد اخترنا 30 شخصا، منهم 15 امرأة و 15 رجل، تتراوح أعمارهم ما بين 54 و 67 سنة، حوالي 20% منهم من مواليد الدار البيضاء و 63% منهم نزحوا إلى المدينة، كهاجرين-خرويين، سنوات 1960-1970، والباقي، 17% تقريبا، هاجروا إليها من المدن الصغيرة أو المتوسطة، سنوات 1970-1990. وقد حاولنا احترام التمثيلية المهنية والجنسية للعين، التي شملت ثلاثة رجال تعلم باختلاف مستوياتهم، ومدير إحدى الجمعيات، وثلاثة عمال (ouvriers) وثلاثة إيطارات في القطاع الخاص، ورجل أعمال ناجح، ومقاولين اثنين متخصصين في العقار، وسائق تاكسي، وحارس ليلي متقاعد؛ أما النساء فتمثلن، أستاذتين، وثلاث موظفات، وممرضة في القطاع الخاص، وطبيبة، وثلاث عاملات (ouvrières)، وخمس نساء-ربات بيت. وكان يودنا رسم جدول عام، ندرجه في الملحق، كما هو متعارف عليه، يضم كل المعطيات المتعلقة بالأفراد، الذين تمت مقابلتهم؛ ولكن ذلك يتطلب أكثر من 800 كلمة، نحن في غنى قصد تقليص حجم ومجال هذه الورقة. ولكل هذا، ارتأينا القيام بمحاولة مختصرة لتقديم بعض نتائج البحث الميداني، حسب الظروف الأنسب، وخاصة أن أغلب الأجوبة المتعلقة بأسئلة مباشرة، كانت متشابهة، وبالتالي هناك عدة تقاطعات، وخوفا من التكرار سندون أهمها وأفيدها. ونحن واعون، كل الوعي، بأن =عملنا الميداني، هذا، يبقى ناقصا؛ ولكننا مقتنعين، أيضا، كل الاقتناع، بأنه يقدم لنا مادة دسمة تستحق كل الاهتمام. وقد استغرقت كل المقابلات المسجلة ما يفوق 21 ساعة لم تستغل كفاية ونود استغلالها في ورقة بحثية خاصة.

3- مقابلة شخصية مع أحد المقاولين، 4 غشت 2015. ونسميه محمد كاسم مستعار، على غرار الأسماء التي سنذكرها لاحقا.

يقترح "التدخل في إطار أشمل يهتم إصلاح وترميم عمران كل المدينة"¹، وذلك ما يتطلب كلفة مادية وبشرية ضخمة ووقتا طويلا، بالإضافة إلى وجود إرادة سياسية قوية تُشرك المواطنين المعنيين في هذا المشروع الطموح، الذي يستوجب "تلميع التراث الثقافي للمدينة والذي يمكن أن يكون قاطرة فعلية للتنمية المحلية"².

إن استحضار البعد التراثي-التاريخي للمدينة البيضاء يجعل "مسألة هندسة خطة استعجاليه [...] على رأس اهتمام السلطات المحلية والفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين والمجتمع المدني، من أجل رسم مشروع متكامل، للقضاء على السكن العشوائي غير اللائق، الذي يشوه المعالم الكبرى للمدينة"³. والحال، أن التهميش الذي شمل بعض أحياء المدينة القديمة، لا يزال يعقد التدخلات والخطط، التي رُسمت مؤخرا لتهيئة وإعادة تنظيم المجال بالدار البيضاء، علما بأن هذه الخطط تستوجب تصورا عاما وشموليا يأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية و"الثقافية-التراثية والسياحية"⁴. ويجب على هذا التصور، أيضا، أن لا يمس بالتوازنات الكبرى لمفهوم المدينة؛ مادام تنظيم المجال هو عبارة عن ذاكرة تاريخية تحيل على هوية جماعية وتمثل أجيالا عدة، سواء منها تلك التي ولّت وانتهت أو الراهنة-الآتية، المتزامنة مع انبهار الثقافات الشعبية والقيم المحلية، وبالتالي سيادة الثقافة النمطية المفروضة زمن العولمة.

وقد اشتغلت عدة مؤسسات وجمعيات-منظمات، تمثل الرأي العام البيضاوي، على الدفاع عن تاريخ المدينة وذاكرتها وكرامتها، وبالتالي "صيانة تراثها المعماري"⁵ والثقافي والحضاري، ويتجلى ذلك عبر "إنجاز دراسات ميدانية وإعادة التهيئة المحلية لعدة أحياء لعبت دورا طلائعيا في المقاومة الوطنية، زمن الاستعمار، والنضال من أجل غد أفضل، أدى الكثير من المواطنين-البيضاويين ثمنه الباهظ، وصل إلى السجن والتعذيب، زمن سنوات الرصاص، بالحلي المعروف بـ "درب مولاي الشريف"⁶، و"تلعب جمعية ذاكرة وكرامة دورا هاما، في هذا الإطار؛ وذلك عبر محاولات الترميم

1- سعيد-مقاول، مقابلة شخصية، 2015/8/4.

2- لطيفة-أستاذة، مقابلة شخصية، 2015/8/3.

3- أنيق-رجل أعمال، مقابلة شخصية، 7 غشت 2015.

4- يُنظر العدد الخاص حول "السياحة والتنمية المحلية في المدن المغربية القديمة"، دفاتر جغرافية، العدد الثاني، دجنبر (2005).

5- عبد واحد مهادوي، "حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية"، دفاتر جغرافية، العدد 4/3 (2007)، ص. 10-7.

6- من أجل المزيد من التفاصيل حول هذا السجن الجماعي الذي طبع جيلا بأكمله، يُنظر إلى: نجيب تقي، جوانب من ذاكرة كريان سنطرال - الحلي الحمدي بالدار البيضاء في القرن العشرين، ج. 1، ط. 1، (الدار البيضاء، نشر جمعية الدار البيضاء ذاكرة، 2012)، ص. 66-72.

والحفاظ على تراث الأحياء العتيقة"¹، التي تستنشق تاريخ الدار البيضاء، وهو التاريخ الذي يبقى جزءاً لا يتجزأ من تاريخ المغرب المعاصر.

و"لا يمكن بتاتا لأية تنمية حضرية أن يكتب لها النجاح إلا ضمن سياسة حضرية تشاركية، كمشروع يعكس نظرة المنتخبين السياسيين المحليين والفاعلين الاقتصاديين والشركاء الممثلين للمجتمع المدني"². ومن ثم، يمكن اعتبار التنمية البشرية والحضرية-المجالية-الترايبية كأداة لوضع تصور شمولي يعالج الثغرات، التي شابت تدبير مدينة الدار البيضاء، وجعلتها تدخل في حلقة مفرغة تتجلى في "أزمة حضرية" من الصعب الخروج منها: كالبناء العشوائي وانتشار السكن الصفيحي، والمضاربات العقارية، وتدهور الوسط البيئي وارتفاع نسبة الأمية وتفشي البطالة والعنف. ولعل هذه "الأزمة الحضرية" المعاصرة ترجع أساسا إلى تراكمات أخطاء سابقة بعضها يعود إلى المؤسسة الاستعمارية والبعض الآخر تم ارتكابه بعد حصول المغرب على استقلاله.

ويتفق أغلب "المستجوبين" المحاورين، رغم اختلاف مستوياتهم الثقافية-الاجتماعية، على ما يسمونه بـ "أزمة النقل الحضري" التي تعاني منها المدينة، بالإضافة إلى قلة الأمن وانتشار الجريمة وقلة أو انعدام مجالات الترفيه والمساحات الخضراء، فأصحاب السيارات يشكون من صعوبة التنقل والاختناظ، الذي يخنق الممرات والطرق؛ "أما السكان، الذين لا يملكون سيارات فهم يعانون من مشاكل وسائل النقل غير المناسبة"³، والتي تعرف ازدحاما مھولا ونقصا حادا؛ "مما يتطلب إعادة النظر في تنظيم وهيكلية قطاع النقل بالمدينة، على أسس تشاركية، [...] كما يجب توسيع بعض الطرق وتوافر الإنارة في بعض الأحياء غير الآمنة"⁴؛ أما إحدى الممرضات فتقترح "إعادة النظر في تنظيم المجال الحضري انطلاقا من احترام وتطبيق القانون الذي يجب أن يسري على الجميع، كما يجب محاسبة المسؤولين-الفاستدين في ظل ديمقراطية-تشاركية-مواطنة"⁵.

وهذا "بأدريس"، كما يسميه أبناء حي بوركون، كان يعمل حارسا ليليا لإحدى الشركات الخاصة، وهو متقاعد الآن، يرسم لنا صورة واضحة عن التحولات والمشاكل التي عرفها الحي والذي

1- صلاح-مسؤول جمعي، مقابلة شخصية، 10 غشت 2015.

2- عمر-أستاذ، مقابلة شخصية، 3 غشت 2015.

3- فاطمة وخديجة وسمية: ربات بيت؛ وبوشعيب وصالح وعمر؛ عمال؛ وزينب وكريمة وثورية: عاملات، مقابلة شخصية-جماعية، 9 غشت،

4- العربي-سائق تاكسي، مقابلة شخصية، 6 غشت 2015.

5- رقية-ممرضة، مقابلة شخصية، 12 غشت 2015.

عاش فيه أكثر من 60 سنة: "لم يكن الحي مكتظا بالسكان وكان سكانه مختلطين من اليهود والنصارى والمسلمين وأغلب دُوره مكونة من الفيلات الجميلة قبل أن تتناسل العمارات الشاهقة والوسخة التي بُنيت في ظرف قياسي نتيجة المضاربات. [...] هاجر كل سكان "بوركون" الحقيقيين وتركوه للأفارقة والليبيين والخليجيين والسوريين مؤخرًا، الذين اشتروا كل مجالاته الحيوية. [...] وأصبح الحي لا يطاق في وقت كان من بين أحسن الأحياء البيضاوية الراقية"¹؛ وهكذا، يتحسر ابن المدينة، "بأ إدريس" عن الزمن الجميل، الذي ولّى، والذي كان يشهد لحي بوركون بالجمال والنظافة الدائمة؛ ولكن كل شيء تغير بفعل هجرة اليهود والأوربيين وتركهم مغادرتهم للحي، وبالتالي استقبال مهاجرين جدد، لا ينظر لهم محاورنا بعين الرضى. وهو الذي يقترح "منع بيع العقار للأجانب من أجل الحد من المضاربات ومنع الهجرة القروية التي شوّهت الحي وجعلته مكتظا بالسكان، [...] إضافة إلى فرض غرامة مالية على الصناعات الملوثة والسيارات؛ بل منع مرور هذه الأخيرة في بعض الأماكن الحساسة في قلب المدينة"².

وتقترح إحدى الطبيبات البيضاويات "ضرورة إنتاج المعرفة المعتمدة على البحث والابداع، الذي بإمكانه تأهيل الدار البيضاء لتثمين مواردها البشرية [...] لكي تضمن دينامية تساير متطلبات التميز، التي تحيل على الاستثمار في تربية وتكوين الأطر العليا بغية نجاح التحولات البشرية والاجتماعية والاقتصادية للمدينة [...]، وضمان الانتقال من أنشطة حرفية تقليدية إلى أنشطة صناعية مبتكرة تميزها القيمة المضافة والجودة العالية"³.

ويجب إعادة تأهيل المدينة القديمة (باب مراكش، الحبوس ...)؛ لأنها تعيش حالة من الاغتراب والصراع المستمر بين ثقل الماضي وتناقضات الحاضر وتخوفات المستقبل، خاصة وأنها تشكل النواة التاريخية للحاضرة الوطنية الأولى، وذلك عبر "عمليات الترميم والإصلاح الهادفة إلى التصدي للسكن الآهل للسقوط والتلاشي، كما يجب تنشيط تراث الدار البيضاء الغني والمهمل [...]؛ لأن الفن والثقافة هما أكثر قدرة على هندسة معالم هوية وذاكرة المدينة البيضاوية"⁴، التي ما تزال تعتمد على إشعاعها الاقتصادي، أولاً وقبل كل شيء، وقد آن الأوان أن تلعب الثقافة والفن دوراً لا يُستهان به في التنمية البشرية-المستدامة. وأخيراً، نقترح تشكيل جمعية عمومية تضم

1- "بأ مقابلة شخصية، 11 غشت 2015.

2- ن. با إدريس، مقابلة شخصية، 11 غشت 2015

3- سميرة طيبي، مقابلة شخصية، 8 غشت 2015.

4- مصطفى - رجل تعلم، مقابلة شخصية، 17 غشت 2015.

جميع الفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين والسكان المحلية قصد مناقشة المشاكل الحقيقية ومتابعتها وإعطاء بعض الحلول في حينها، إضافة إلى إنشاء "مختبر مديني عربي" له فروع في كل العواصم السياسية والاقتصادية في العالم العربي، يهتم بإنجاز دراسات علمية تعتمد على تحريات ميدانية قصد تزويد أصحاب القرار بالأدوات والمعلومات اللازمة بغية اقتراح بدائل يمكنها استباق الإشكالات المدينية المطروحة.

قائمة المصادر المراجع المعتمدة

1. باللغة العربية

- جمعية ذاكرة وكرامة، كريان سنطرال الحي المحمدي، ط. 1، ج. 1، الدار البيضاء، نشر المبادرة الحضرية، 2011.
- جون واتيربوري [ترجمة عبد الغني أبو العزم وآخرون] أمير المؤمنين. الملكية والنخبة السياسية المغربية، الرباط، مؤسسة الغني للنشر، 2004.
- عبد الرحمن بن خلدون [تحقيق حامد أحمد الطاهر]، مقدمة بن خلدون، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفجر للتراث، 2004.
- عبد القادر كعيوا، "ميناء الدار البيضاء، دور حاسم في بروز حضرة وطنية" : ضمن عبد المالك ناصري (تنسيق)، المدن المراسي في تاريخ المغرب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2013.
- عبد اللطيف المنوفي ومحمد عياد، الحركة العمالية المغربية، الدار البيضاء، منشورات دار توبقال للنشر، 1985.
- عبد واحد مهداوي، "حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية"، دفاتر جغرافية، العدد 4/3، 2007.
- عطوف الكبير، الهجرات العالمية والمغربية : قضايا ونماذج، مقارنة سوسيو-تاريخية: 1045-2011، الطبعة الثانية، ملقحة ، أكادير، طباعة ونشر سوس، 2013.
- محمد الناصري، "السياسة الحضرية أداة للسلطة أو وسيلة للتنمية"، [ترجمة الشنتوفي مبارك]، المشروع، العدد 6، يناير.
- نجيب تقي، جوانب من ذاكرة كريان سنطرال-الحي المحمدي بالدار البيضاء في القرن العشرين، ج.1، ط.1، الدار البيضاء، نشر جمعية الدار البيضاء ذاكرة، 2012.

2. باللغة الفرنسية

- Agnès Bensimon, *Hassan II et les Juifs, histoire d'une émigration secrète*, Paris, Éd. Seuil, 1991.
- André Adam, « Casablanca. Essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'Occident », in *L'HOMME*, Tome 9, n° 4, 1969.
- André Adam, *Histoire de Casablanca, des origines à 1914*, (Paris, Éd. Ophrys, 1968
- André Adam, *Le bidonville de Ben Msik à Casablanca*, Alger, Université d'Alger, 1950.
- Doris Bensimon-Donath, *Évolution du judaïsme marocain sous le Protectorat français*, La Haye-Paris, 1968.
- Elkbir Atouf, « Mémoire des soldats marocains des deux grandes guerres », pp. 95-119, in Nouria Ouali (sous dir.), *Trajectoires et dynamiques migratoires de l'immigration marocaine de Belgique*, Louvain-La-Neuve, Éd. Academia Bruylant, 2004.
- Elkbir Atouf, *Aux origines anticipatrices des migrations marocaines vers l'Algérie coloniale et la France colonisatrice 1830-1942*, Rabat, Éd. Université Ibn Zohr/Négoce Com, 2014.
- Hubert Layautey, *Lettres marocaines et autres écrits suivies de textes sur Lyautey*, Casablanca, La Croisée des Chemins, 2010.
- Jalal Bernoussi et autres (coordination), *Le grand Casablanca, la décennie de la renaissance*, Casablanca-Turin Imprimerie K-Business Strategy-Éditions Économiques du Maroc, 2013.
- Jean Paskaletto, « Les émeutes de Casablanca », in *Le Monde* du 23 juin 1981.
- Jean-Louis Miège et Eugène Hugues, *Les Européens à Casablanca au XIX^e siècle*, 4 T., Paris, Librairie Larose, 1954.
- Larbi Talha, *Le salariat immigré dans la crise, la main d'œuvre maghrébine en France*, (Paris, Éd. CNRS, 1989).

Ministre de l'habitat, La ville de Casablanca, les attribues d'une grande-métropole, Rabat, 2012.

..Mohamed Benhlal, «Syndicat et politique au Maroc (1955-1981)», in N. Sraïb et autres, *Le mouvement ouvrier maghrébin*, Paris, Éd. CNRS, 1985.

..Pascal Garret, « Casablanca confrontée à l'Etat colonisateur ... » : in Hélène Vacher, *La ville coloniale auXX^e siècle, d'un sujet d'action à un sujet d'histoire*, Paris, Maisonneuve-Larose, 2005.

R. G. P. H. (Recensement Général de la Population et de l'Habitat) 1960, 1971.

..Robert Montagne (sous-direction), *Naissance du prolétariat marocain*, (Paris, Peyronnet et Cie, 1950).

..Royaume du Maroc-Ministère de l'Économie-Division de la Coordination économique et du Plan, *Tableaux économiques du Maroc* 1915-1959 (Rabat, 1960).

..Saïd Mouline, « La ville et la maison arabo-musulmanes », in *BESM*, n°198, 1983.

..Yves Grafmeyer et Isaak Joseph, *L'école de Chicago, naissance de l'écologie urbaine*, Paris, Aubier, 1990.